الاسلامية، ونظرة علمية وموضوعية للاصول والاحكام الدينية. ان من ابرز مؤلفات الشيخ الشوكاني كتاب «البدر الطالع» *.

٤- الحركة السنوسية في المغرب العربي: النضال ضد الاستعمار الفرنسي والايطالي

١ / التكوين الاصلاحي :-

ظهرت السنوسية ، حركة اصلاحية - دينية فعّالة تدعو للعودة الى صفاء الاسلام واحياء صالح الاعمال، والى البساطة في الحياة ، والى الاعتماد على النفس، والى ابتعاد الانسان عن الشوائب والسكونية والابتذال ، وجعله عضوا في مجتمع منتج، ويعتمد على قواه الذاتية ..

ومؤسس هذه الحركة هو محمد بن علي السنوسي ** من اصل جزائري، ولد في قرية «الواسطة» قرب مدينة مستغانم الساحلية في اقليم وهران بغربي الجزائر، في سنة ١٧٨٧م، (أي قبل اندلاع الثورة الفرنسية بسنتين). وكانت اسرته تحظى بسمعة علمية لائقة، يحترمها المجتمع الجزائري، وبدأ يتعلم منذ صغره، وعندما كبر تخفز على الاستزادة من العلم، فرحل نحو مدينة فاس حيث يقوم فيها مسجد القرويين الشهير، فأقام يدرس فيه سبع سنوات العلوم الاسلامية - الفقهية والشرعية والتفسير. ويتطلع الى احوال العالم الاسلامي، ويسمع بما كان يجري في مصر على يد نابليون بونابرت، ويتعرف الى الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية.. وقد شعرّ باحباط شديد عندمارأى الضعف الذي حاق بالعثمانيين وعجزهم عن مواجهة الاستعمار الاوروبي الذي بدأ يتغلغل في المغرب العربي .. فبدأ يفكر في ايجاد اساليب تدرأ حالة الانهيار الكبير الذي يتعرّض له الوطن العربي والعالم الاسلامي .

---

* علي المحافظة ،الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٨٧٨-١٩١٤م، بيروت ١٩٨٣، ص ٤٤ - ٤٩

** ترجمته بالتفصيل كتبها علي الجميل الموصلي في كتابه المبكر عن السنوسيين، «التحفة السنية في المشايخ السنوسية» مطبوع سراً في مطبعة سرسم بالموصل سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١١م. وقد صادره الاتحاديون واحرقوه نظراً لما ورد فيه من آراء قومية عربية جريئة . ونعمل اليوم على تحقيقه اعتماداً على نسخة نادرة مطبوعة منه.

رحل من فاس نحو مدينة لاغوات في جنوبي الجزائر ، وكانت مركزاً مهماً للمسالك الصحراوية التجارية، ثم رحل متوجهاً نحو مدينة قابس، ثم طرابلس الغرب وبني غازي، ثم وصل الى القاهرة سنة ١٨٢٤م، فأقام فترة زمنية في الجامع الازهر اتّصل بعلماء مصر وساجلهم وحاورهم حول الاسس الفكرية لدعوته، وطبيعة الاسلوب والمنهج الذي اتخذهما لغاية الاصلاح الاسلامي، ثم رحل نحو الحجاز سنة ١٨٢٥م، وفيها التقى بعلمائها ، فشاع ذكره.. وكان الفرنسيون قد احتلوا الجزائر عام ١٨٣٠م وعندما قرر العودة اليها بعد زمان طويل، وخاصة الى مسقط رأسه، فبقي يجوب في الصحراء جنوبي الجزائر الذي لم يكن قد سقط في اليد الاستعمارية – الفرنسية .. ولكن اتعبته الحياة الصعبة هناك، فهاجر مرة اخرى الى القاهرة، ثم وصل الحجاز مرة ثانية.. وفي الحجاز انشأ زاويته الاولى وجعلها فوق جبل ابن ابي قبيس بمكة سنة ١٨٣٧. وقد بقي في الحجاز حتى عام ١٨٤٠م، إذ رحل بعدها الى مصر فطرابلس الغرب، واحب زيارة الجزائر لكنه مضى نحو مراكش، ليستقر في فاس ممارساً التدريس الديني، ولكن مراكش خشيت دعوته، فضيقت عليه كثيراً ، فغادر مضطراً الى طرابلس الغرب سنة ١٨٤١م، ومنها بدأ رفقة اصحابه يسهمون في مقاومة الفرنسيين بالجزائر للفترة ١٨٤٨-١٨١٦م.

كان في نية الشيخ السنوسي التوّجه الى مسقط رأسه في الجزائر، الاّ انه خشي سطوة الاستعمار الفرنسي الذي مثل بالنسبة اليه تحدّياً تاريخياً دفعه الى«الاعتكاف والعودة» نتيجة دافع المعاقبة بالحرمان النفسي من وطنه الأم وأهله.. بدليل (نظرية التحدّي والاستجابة) للمؤرخ البريطاني أرنولد توينبي إن التحدي والاستجابة قد دفعا الشيخ السنوسي الى تكوين انطلاقته للتبشير بدعوته جزءاً من مواجهة التحديات الاجنبية، مستلهماً فكرته التنظيمية من الرُبط الاسلامية (جمع: رباط)، فأسّس زاويته التي غدت مركز تجمع حيوي جديد.

لقد استقر السيد السنوسي عند الساحل الليبي متّخذاً من برقة نقطة التقاء لجولاته وحركاته بين المشرق والمغرب العربيين، ولكن سرعان ما عاد الى الحجاز مرّة اخرى ليقيم فيها والطائف وينبع وجده والحمراء ورباح ووادي فاطمة والمضيق واصفان وابان، اي نزولاً نحو عسير واليمن .. لقد قضى في الحجاز الفترة الممتدة بين ١٨٤٨-١٨٥٦م، (أي خلال السنوات التي استقر فيها محمد علي باشا في مصر)، ثم غادر الحجاز عائداً الى الجبل الأخضر

بعض المؤرخين انه استقّر نهائيا في ليبيا منذ عام ١٨٥٤م، مؤسسا الكثير من الزوايا كي تكون مراكز لا تقتصر على العبادة والدراسة فحسب، بل لكي تغدو مراكز انشطة انتاجية اقتصادية واجتماعية*.

إن «الزاوية» هي مكان شبه رسمي يرتبط برأس التنظيم السنوسي من خلال قائد لها يدعى بـ «مقدّم الزاوية» وهو الذي يرشد الناس، ويعمل على حلّ مشكلاتهم ويساعدهم على مزاولة الانتاج الزراعي والحيواني. وهناك «شيخ الزاوية» الذي يتولى شؤون التدريس والقضاء. ويرتبط بمقدّم الزاوية «الوكيل» الذي يشرف على الزراعة والادارة والاقتصاد. ولكل زاوية مجلس يتألف من ذوي المناصب الثلاثة: المقدم / الوكيل / الشيخ .. فضلاً عن رؤساء القبائل المنتشرة حول الزاوية.. كاجراء تعاوني منظم. اما «الزاوية» فتتألف من مسجد للصلاة ومدرسة للتعليم، ومنزل للقائد والوكيل والشيخ وفيها بيوتات للضيوف والزائرين والرحالة وعابري السبيل. وهناك مأوى فيها مخصص للفقراء، ومسكن للخدم، ومخزن للمؤن، واصطبل للخيول، ومتجر، وفرن، ومطبخ وسوق. ولكل زاوية ، ارض زراعية صالحة للزراعة وخاصة بها، وصهاريج لحفظ المياه .. ويكون العمل جماعياً دون أجر، اما الانتاج فيسوق وتنفق الاموال على الزاوية ومرافقها، غذاءً وكساءً وتعليماً ..ويذهب ما يتبقّى من اموال الى المركز.

لقد انتشرت الزوايا، فبلغ عددها (١٨٨) زاوية. (٢٥) زاوية منها في الجزيرة العربية، و (٩٧) منها في ليبيا، و(٤٧) زاوية في مصر، و(١٧) في السودان، و(٢) في تونس. وكان لتلك الزوايا الفضل الكبير في بناء انسان تعاوني مرتبط بنظام انتاجي، ومؤمن برسالة سامية وانسانية، وله انتماؤه للارض والسماء، ولحياته ضمانات اكيدة.. وانطلق الدعاة السنوسيون الى قلب افريقيا الاستوائية ينشرون مبادءهم، ويقيمون زواياهم، ويحاربون الاوضاع السيئة، والتقاليد والاعراف البدائية ، ويدعون الى قتال المستعمر، والحيلولة دون سيطرته في اعماق افريقيا، والوقوف ضدّ اساليبه التبشيرية والعسكرية **.

---

*For detail see E.E. Evans pritcharad, The Sanusi of Cyrenaica, Oxford Univ. Press, Oxford 1968.

** من اجل الاطلاع على اكبر قدر من التفصيلات ، يراجع ما كتبه كل من المؤرخين. احمد صدقي الدجاني واحمد امين وعلي المحافظة ومحمد عماره.. اضافة الى : ايفانز – بريجارد وهاملتون كيب وفلاديمير لوتسكي وغيرهم.

٢ / الانتشار الجغرافى :

لقد كان قائد الحركة السنوسية محمد بن علي السنوسي الكبير ١٧٨٧-١٨٥٩م، قد اختار واحة جغبوب الليبية مركزا لحركته ودعوته التنظيمية، إذ تقع في قلب جغرافي يتوسط طرابلس الغرب، وبرقة ومصر والسودان الشرقي والسودان الغربي (الصحراء الكبرى). اضافة الى كونها ملتقى للقوافل المّارة في مختلف الاتجاهات. بدأ ذلك المركز على شكل مدرسة دينية مزوّدة بالمئات من الكتب، وقد كانت تلك المدرسة تضّم كل سنة قرابة ثلاثمائه من طلبة العلم الذين يتحوّلون حال تخرّجهم الى دعاة للحركة، ثم قادة لها ..

هكذا ، فبعد انقضاء مدة زمنية، انتشرت الدعوة السنوسيّة في اصقاع كبيرة تمتد على امتداد الشمال الافريقي ، وبفضلها انتشر الاسلام الى أعماق افريقيا، فوصلت تأثيراتها الى النيجر ، والكونغو ، والكاميرون، وداهومي وتشاد وغيرها.. والتي تأثرت جميعها نتيجة انتشار الدعاة السنوسيين الذين وفدوا إليها بطريق التجارة، او على هيئة سواح افادوا كثيراً افريقيا الاستوائية بتوغلهم في المناطق التي شهدت امتدادات اوروبا الاستعمارية، وقد خشيت الدوائر الاستعمارية منهم ومن تأثيراتهم .. وكانوا يرتدون الأردية البيض المخططة بالسواد، وكانوا يتميزون باخلاقهم العالية. وبدأوا يقاومون الغزاة، لا سيما وأنّه أوّل من تنبّه الى فعالياتهم اعضاء تلك الارساليات التبشيرية، فبدأت تضغط على حكوماتها لايقاف المدّ السنوسي، ونشاطات السنوسيين ، والتوسط لدى الدولة العثمانية.

وعلى الرغم من عدم اصطدامهم بالعثمانيين والدولة العثمانية، فانهم اقترحوا منهاجاً سياسيا تقف على رأسه مؤسسة «الخلافة» التي اشترطوا ان تكون عربية قريشية!

٣ / الحركة السنوسية والسلطان عبد الحميد الثاني:

اعقب السنوسي الكبير ولده الزعيم المهدي السنوسي ١٨٤٤- ١٩٠٢م، والذي قاد الحركة في اصعب الظروف، ويعود اليه فضل تحويل الحركة من كونها حركة اصلاحية منهاجية اجتماعية الى حركة سياسية -- عسكرية. أي بأختصار :

غدت الحركة تنظيماً اجتماعياً له ايديولوجيته القوية للوقوف بوجه الفرنسيين بشكل خاص، متخذة من «الكفرة» مركزاً قيادياً لها، وقد ذهبت محاولات السلطان عبد الحميد الثاني لاحتواء هذ الحركة والسيطرة على نفوذها السياسي.

لقد حدثت صدامات واسعة بين السنوسيين والفرنسيين، وحققت خلالها نجاحات بالغة، ولكنها انتكست بمرارة عام ١٩٠٠م، إثر هزيمة فادحة، ومات زعيم الحركة المهدي السنوسي عام ١٩٠١م، ولم تمر الا سنوات قلائل حتى تعرضت ليبيا الى ابشع غزو عرفته في تاريخها الحديث، عندما هاجمها الطليان بغزوهم طرابلس الغرب بهدف استعمارها، فما كان من السنوسيين الا ان يبدأوا صفحة نضال بعد عام ١٩١١م،ليقود النضال الوطني هذه المرة خلفاء المهدي السنوسي، وخاصة ابنه محمد ادريس (فيدخل ذلك كله وما اعقبه في طور التاريخ العربي المعاصر).

٤/ النضال ضد الاستعمار:

كانت الاعتبارات والعوامل الاقتصادية من أساسيات الغزو الايطالي، وكذلك الموقع الاستراتيجي لطرابلس الغرب الذي يمكن ايطاليا من تهديد تونس (الفرنسية) ومصر (الانكليزية). وسبقت ايطاليا الاحتلال بعقد مجموعة من الاتفاقيات مع بعض الدول الاوروبية لتحديد مناطق النفوذ في منطقة البحر المتوسط، وبخاصة فرنسا وانكلترا والمانيا والنمسا واسبانيا منذ عام ١٨٨٧م، وحتى روسيا عام ١٩٠٩م، على الرغم من وقوف الرأي العام،ضد التوسع والمطامع الايطالية. وقد استغلت ايطاليا الازمة الدولية عام ١٩١١م للاستيلاء على طرابلس الغرب وبرقة بعد ان اختلقت سبباً مباشراً ضد الباب العالي بتواطؤ دولي صامت، فاعلنت ايطاليا الحرب على تركيا العثمانية في ٢٩ ايلول/ سبتمبر ١٩١١م. وكانت الاحوال الادارية والاقتصادية قد ساءت كثيرا في ليبيا*.

كانت القوة المسلحة العثمانية تقدّر بـ(٧) آلاف مقاتل، في حين كان قوام الجيش الايطالي (٣٤) الف مقاتل، ثم وصل الى (٥٥) الف مقاتل عام ١٩١٢م،

---

* راجع تحليلات د. فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث، بيروت، ١٩٧٩

فضلاً عن المدفعية والتلغراف وسلاح الطيران (الذي استخدم لاول مرة في العمليات الحربية لتلك الحرب القاسية) . واحتّلت ايطاليا طرابلس الغرب في ٥ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١١م، ودرنه في ١٨ تشرين الاول ، وبنغازي في ١٩ منه.. واعلنت روما ضم ولاية طرابلس الغرب بتاريخ ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١١م، وعرفت تلك البلاد منذ ذلك اليوم باسم «ليبيا».

بدأت المقاومة السنوسية والنضال الليبي الحقيقي ضد المحتل الجديد الذي استخدم الاسلحة الفتاكة والمدفعية والطيران لاول مرة. وبدأت المدن الليبية تتساقط واحدة إثر الاخرى بيد الطليان ... ولّما لم تستطع الدولة العثمانية مواصلة الحرب ضد ايطاليا بسبب من ثورة البلقان فقد عقد الصلح بين الطرفين في ١٥ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٢م. وصدرت بنود المعاهدة التي لم تراع أحكامها في حقيقية الأمر الحقوق التاريخية المشروعة، ولكنها اختصت بأقامة حكم ثنائي ايطالي تركي من نوع خاص، واعتبرت ايطاليا ليبيا مستعمرة اعتيادية تابعة لها، الاّ ان تركيا العثمانية رفضت ذلك، ولم تتنازل عن سيادتها و حقوقها في طرابلس الغرب، الاّ عقب الحرب العالمية الاولى وفق اتفاقية لوزان عام ١٩٢٣م، في حين اعترفت الدول الاوروبية بالسيادة الايطالية على ليبيا * .

٥ / الاستنتاجات :

لقد اعلن السنوسيون الجهاد المقدس ضد القوى الاستعمارية – الايطالية، فتراجعت تلك القوى عن امتداداتها الداخلية نحو السواحل، والتراجع الى المدن الكبيرة والمراكز والمرافئ. واشتعلت الحرب بين فصائل الانصار التي كونها السنوسيون والقوات الايطالية. وقد استطاع الليبيون ان يحققوا مكتسبات تاريخية كبرى، فضلا عن ان الايديولوجية – السنوسية قد خدمتهم كثيرا خلال النصف الاول من القرن العشرين.

ولا بد لنا ان نقول بأن الحركة السنوسية بتاريخها وايديولوجيتها لم تكن حركة دينية سلفية فحسب، بل كانت حركة تعاونية وسياسية لتنظيم الحياة الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية من خلال الروح الانتاجية، والاهتمام بالزراعة

---

* راجع التفصيلات التاريخية للحركة في د. احمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها وتطورها في القرن التاسع عشر، بيروت، ١٩٧٦.

والتعليم والفروسية والرياضة والزهد والقناعة والفنون والسياحة والتجارة والانفتاح على الآخرين، ونشر الاسلام في اعماق افريقيا الاستوائية .. كما وكانت حركة مسالمة مهادنة للقوى الاجتماعية كافة، ولم تتخذ من السلب والقتل والنهب والتحرشات والغزو اساليب لها في التغيير او التوسع .. كما واستطاعت ان تنظم المجتمع تنظيماً روحياً وعملياً، فنجحت في درئها للمخاطر الاستعمارية من خلال التجارب الساخنة التي تعاملت معها سواء مع فرنسا او ايطاليا.

كما ولا بد ان نقول بأن هذه الحركة غدت ايديولجية وطنية نتج عن تفاعلها في الاقاليم الليبية ان جمعت تلك الاقاليم الثلاثة في اتحاد سنوسي خرجت به على العالم تحت اسم «المملكة الليبية المتحدة» التي تكونت من طرابلس الغرب وبرقة وفزان .. لكي تعيد من جديد وحدة اقليمية لبلاد «سرينايكا» القديمة.

٥- الحركة المهدية: ترسيخ القيم الوطنية والنضال ضد الانكليز وولادة دولة

١ / مقدمة

غدا السودان الشرقي تحت الحكم المصري إبان القرن التاسع عشر وعلى يد محمد علي باشا، فانعكست الظروف السياسية والاقتصادية التي عاشتها مصر على السودان انعكاساً مباشراً، بحيث تحمّل السودان ثقلاً كبيراً كان يفرضه «الحكمداريون» المصريون الذين يتسلمون اوامرهم من خديوات مصر، وفضلا عن دلك، فقد أصبح السودان مرتعاً للبعثات الاوربية والمغامرين الجغرافيين الذين افتتحوا العهد الاستعماري للسودان الشرقي. وكان الانكليز في مقدمتهم، وقد انتشروا في السودان والتغلغل منه نحو أفريقيا الاستوائية تحت حجج عديدة أبرزها · منع تجارة الرقيق.

كان السير صموئيل بيكر S. Baker من اوائل الجغرافيين الانكليز الذين منحهم الخديوي اسماعيل سنة ١٨٦٩م ادارة مديرية خط الاستواء، وجاء من بعده الجنرال غوردون Gordon منذ سنة ١٨٧٤م، ليتولى مهمة توطيد الادارة المصرية، ويعمل على تنفيذ الخطط البريطانية الموكولة اليه.. مع ازدياد حجم النشاطات التبشيرية البريطانية والفرنسية في عهد غوردون الذي تّولى حكم السودان عام ١٨٧٧م.

وفي عام ١٨٨١م، وهو العام الذي نشبت فيه الثورة العرابية في مصر، انفجرت في السودان، ثورة عارمة على النير الاستعماري. وقد قاد هذه الثورة احد السودانيين الذي اطلق على نفسه «المهدي المنتظر» ! فمن هذا الرجل ؟ وما حقيقة حركته ؟ وما آثارها التاريخية على تاريخ السودان ؟.

٢ / مؤسس الحركة محمد المهدي وتطور ايديولوجيته :

ولد محمد احمد بن عبد الله في سنة ١٨٤٤م، في جزيرة لبب في نهر النيل بالغرب من مدينة دنكلة، ومارس حرفة النجارة كأبيه واخوته.. ثم ساح في بلاده منذ شبابه، فاكتسب تجارب مهمة، وتعرف على حياة الناس، ثم التحق بالطريقة الاسلامية السمانية في مدينة بربر او المخيرق في شمالي السودان، ودرس هناك علوم الدين .. ثم استوطن جزيرة آبا الواسعة التي ستغدو بؤرة نشاط له ولتابعيه فيها .. داعيا الى التنسّك والوقوف ضد سوء الاخلاق والمعاملة التي يمارسها الجنود الاتراك والمصريون والاوربيون في اراضي السودان. ودعا الى انقاذها منهم ، ثم انقاذ ديار الاسلام من خطر الاستعمار والاتراك.

لقد تميّز المهدي ببساطته وزهده وقدرته على الاقناع ، فالتفت حوله الآلاف المؤلفة من الفلاحين والفقراء والدراويش والبدو والعاطلين فاسماهم بـ «الانصار».. في حين ابتعد عنه الأثرياء والرؤساء واصحاب المصالح الاتراك والاقطاعيون الذين دعاهم الى تقسيم الاموال والاقطاعيات والاراضي على الفقراء الباسين .. واذا رفضوا فلتنتزع بالقوة انتزاعاً .. كما دعا الى الثورة بغية ايقاف النهب الاوروبي العلني، والحدّ من نير الباشوات . وقد جاء ذلك كلّه ضمن النهج الاصلاحي الديني الذي رسمه .

وعليه، فان الحركة المهدية ذات النزوع الاصلاحي قد نشأت اصلاً دعوة سياسية وطنية تقوم على مبدأ التحرّر والانعتاق السياسي والاقتصادي لبناء مجتمع سوداني عادل. ولقد وجد السيد المهدي الفرصة التاريخية سانحة امامه لاعلان «الثورة» في شهر آب / اغسطس عام ١٨٨١م، داعياً الشعب اليها بعد ان أبادت «انصاره» قوّة مسلحة جاءت للتنكيل به، وفي مقدمتها مدفع واحد، فنزح المهدي الى اقليم كردفان حيث كان ينتظره الآلاف من المؤيدين والانصار، وتحولت الجموع الغاضبة خلال ايام الى قوات ثورية ضاربة من الذين بهرتهم

دعوات المهدي بالعدالة والتحرر، فأسس المهدي معكسراً في جبال كردفان الجرداء. ونظّم الجيش بعدّته واعداده، وبدأوا بالهجوم على المراكز الحكومية والحاميات العسكرية، وعلى الموظفين من جباة الضرائب والسعاة، فبدأت تترسخ يوما بعد آخر عند السودانيين روح العزة بالسيادة الوطنية بعد افتقادها لستين سنة.

وبدأ جيش المهدي يصدّ الحملات المصرية – البريطانية التي كانت تباد ابادة تامة، وتستخدم كل وسائل الدفاع خلال عام ١٨٨١م، وعام ١٨٨٢م و ١٨٨٣م التي أتّموا خلالها السيطرة على كامل كردفان، وهو العام الذي حقق المهديون فيه انتصاراتهم، وخاصة بعد ان اصطدم المهديون بالجيش البريطاني – المصري، واستمرار عملياته على مدى ثماني شهور. وتوالت الهزائم بقوات الجنرال هكس وقوات الجنرال بيكر.

وفي مطلع عام ١٨٨٤م غدت كل البلاد السودانية من جهتي النيل الغربية والشرقية بيد المهدي، ولم يبق للسلطات البريطانية المصرية الاّ مساحة ضيقة من وادي النيل. ولكن الانكليز استطاعوا تدبير مناورة ناجحة باعلان استقلال السودان عن مصر على يد غوردون الذي نصّب حاكماً على الخرطوم في ١٨ شباط / فبراير ١٨٨٤م، ونصّب المهدي سلطاناً على مديرية كردفان، واحتفظ لنفسه بمنصب حاكم عام لنفسه.. ثم الغى الضرائب، وأعلن العفو العام، ولكن المهديون اكتشفوا هذه المناورة فردّوا على ذلك بحصار الخرطوم بدءاً من شهر آذار / مارس ١٨٨٤م. وبقي هكذا الحال حتى توجّه من مصر جيش قوامه (٧) آلاف مقاتل بقيادة الجنرال ولسلي، لكنه لم يبلغ الخرطوم وفي ٢٣ كانون الثاني / يناير ١٨٨٥ استسلم المحاصرون، فاحتلها الثوار، وقتل غوردون اثناء عمليات الاقتحام، وقضي على الانكليز، فعاد ولسلي بجيشه الى مصر. فانفتح الطريق امام الثوار للسيطرة على جميع اراضي شرقي السودان، فتأسست الدولة المهدية على مدى اربعة أعوام، ولم يبق بيد الانكليز الاّ منطقة صغيرة في شمالي دنكلة، اضافة الى مديرية خط الاستواء.

٣/ تكوين الدولة المهدية وترسيخ الوطنية السودانية من خلال الصراع ضد الاستعمار:

لقد انتصرت الحركة السلفية – الاصلاحية – المهدية بتأسيس «دولة» على يد صاحبها المهدي الذي توفي بعد فتح الخرطوم، فانتقل الحكم الى يد صديقه عبد

اللّه التعايشي، الذي لقب بـ «الخليفة» . وعاشت هذه الدولة (١٣) سنة، اي حتى عام ١٨٩٨م. تهددها المخاطر من كل حدب وصوب. وبقيت في حالة دفاع عن النفس، اذ نظم الجيش واصلحت السفن، وظهرت الصناعة الحربية، وحاول العملاء في الداخل نسف الكيان الداخلي للدولة الفتيّة المستقلة.

كانت دولة المهدي تتمتع بالبساطة والحرية، وخفضت الضرائب عن كاهل ابناء الشعب، وكان الزهد والتقشف من سمات الضباط والقادة ، وتمتع الناس بالمساواة وعوقب اللصوص، ومورست سياسة تقشفية مخلّصة من اجل اصلاح الحياة الاقتصادية للمجتمع ..ولكن لم يقض على طبقة الاقطاع لحاجة الدولة الى الوقت اللازم ، فضلاً عن ان البرامج كانت عفوية، ولكن المهدية حركة ودولة، ايديولوجية وتكويناً .. قد انتحسرت للفلاحين الذين عانوا كثيرا على مدى قرون طويلة ! ولم تستطع الدولة المهدية من القضاء على الرق على الرغم من اتخاذها بعض الاجراءات ضد تلك الظاهرة المقيتة.

لقد بقي نظام الرق اضافة الى بقاء واستشراء بعض الظواهر السلبية الاخرى كالانشقاق القبلي، وتبلور مصالح جديدة على حساب السلطة الجديدة، وبخاصة المكاسب التي حصلت عليها قبائل كردفان، مما أثار استياء قبائل النيل التي خاضت نضالا ضد القبائل المتنعمة.

وبدأت الانتفاضة ضد الحكومة المهدية التي ارتدّت عن بعض اهدافها الاولى، وقاد ذلك كله الى صراع قبلي وطبقي عنيف مما اضعف الدولة المهدية كثيراً في بنيتها الداخلية، وكانت احوج ما تكون الى القوة وهي تقاوم الاعداء من الخارج.

فكيف كانت طبيعة العلاقات بين الدولة المهدية والاطراف الخارجية ؟

كانت الدولة المهدية مضطرة للقيام بمحاربة اعدائها، اذ استمر القتال ضد الجيش الانكليزي - المصري في مناطق عدة من الجهة الشرقية للفترة ١٨٨٥ ١٨٨٩م، فضلاً عن الصراع ضد سلطان دارفور في الجهة الغربية وضد نجاشي الحبشة.. وفي عام ١٨٩٦م، كان الصراع ضد دول اوروبا قد بلغ ذروته، اذ كان هناك تنافس كبير بين بريطانيا وفرنسا لتقويض تلك المرحلة الفيكتورية هي من اشد المراحل توتراً في حالة الصراع الاستعماري الانكلوفرنسي لانقسام افريقيا، ثم دخل الايطاليون للاستقرار في ارتيريا .. ثم دخلت بلجيكا مناطق النفوذ في

مطلع القرن العشرين . ولكن في سنة ١٨٩٦م، عندما قررت فرنسا الزحف بقيادة مارشان من اواسط السودان الى اعالي نهر النيل. جردّت انكلترا في آذار / مارس من العام نفسه حملة انكلو – مصرية بقيادة كيتشنر على شرقي السودان ..

هكذا بدأت كل من فرنسا وانكلترا الهجوم، اولاهما من الغرب، وثانيتهما من الشمال. وبعد سنتين، أي في عام ١٨٩٨ م اقترب الجيشان من عاصمة الدولة المهدية. ونشبت معركة بين المهديين من طرف، واولئك الذين استعملوا الاسلحة الرشاشة التي حصدت الالاف من المهديين، فاندحر الجيش المهدي اندحاراً تاماً، وتراجعت فلوله غرباً نحو كردفان واسرع كيتشنر نحو فاشودة في الجنوب التي كانت تهددها القوات الفرنسية، ولكن حسم النزاع ، وسّويت القضية على اساس توازن القوى في العالم. فتراجع مارشان عن فاشودة، واستسلمت فرنسا، ولكن لم تمض الا شهور قليلة حتى عقدت الاتفاقية الانكلو – فرنسية في شهر / مارس ١٨٩٩م حول توزيع مناطق النفوذ في العالم.

وبموجب الاتفاق المذكور سيطرت انكلترا على شرقي السودان .. ثم بعد مفاوضات بريطانية – مصرية، وافقت الحكومة المصرية على السماح لبريطانيا بادارة السودان لقاء معونات قدمتها الى مصر في السودان .ومنذ عام ١٨٩٩م ، عرف السودان رسمياً بـ «السودان الانكليزي – المصري»، واقيم فيه نظام سياسي ثنائي او مزدوج، وخلال ذلك الحكم، شرعت انكلترا بتصفية اخر الجيوب والبقايا المهدية التي كانت متركزة في كردفان وقتل الخليفة عبد الله في المعركة، وفي ١٧ كانون الاول / ديسمبر ١٨٩٩م، استولى الانكليز على «الابيض» عاصمة المهديين رغم المقاومة المشتتة التي سحقت في أرجاء السودان.

وعلى مدى الربع الاول من القرن العشرين، كان حكم الانكليز للسودان، حكما صعبا جدا، نظرا لتزايد الانتفاضات في اماكن متفرقة دون ان تجد لها شمولية وزعامة ثورية توحد الجهود النضالية الوطنية .. وقد باءت جميع المحاولات تلك بالفشل المرير*.

---

* لقد كتب فلاديمير لونسكي كتابة جيدة بخصوص «المهدية» كتابه «تاريخ الاقطار العربية ، ص٣٠٧-٣١٢، وقارن معلوماته بتحليلات المؤرخ تيوبالد والمستشرق هولت

A.B Theobald. The mahdiya, Longmans, London, 1965,pp. 40-73: See also .p.m. Holt The mahdist State in the Sudan, Oxford, 1970.

و انظر كتابات المؤرخين العرب : مكي شبيكة، د. محمد فؤاد شكري، نعوم شقير، د. جلال يحيى د فهمي جدعان ، د. علي المحافظة